ومما اثنى عليه ارباب الدين وذوو التقى ما قرّرهُ في ٢٢ آب مجلس وزراء الحكومة ان تخصّص في كل المدارس يومياً ثلث ساعة للتعليم الديني كلًّا حسب دينه

﴿الحبشة﴾ سبق ذكر الوفد الذي ارسلتهُ ملكة الحبشة الى رومية لتوثيق العلائق بين بلادها والواتيكان

وكذلك اشرنا سابقاً الى احوال بلدان افريقية حيث يشتغل المرسلون بكل نشاط في فلاحة كرم الربّ الذي يجازي عملهم ويخصب ثمار اتعابهم

الصليبيُّون ومكتبة طرابلس الشام

نبذة تاريخيَّة انتقاديَّة للاب هنري لامنس اليسوعي

كان دخول الصليبيين عنوةً في طرابلس في ١٢ تموز ١١٠٩ بعد حصار طال عشر سنين. وكانت العادة الجارية في ذلك الوقت شرقاً وغرباً ان تُنهب المدن المفتوحة قسراً وهي عادة لم يبطلها التمدُّن الّا منذ نحو مئة سنة. فلا عجب انَّ الصليبيين بعد ما قاسوهُ من المشقَّة في حصار شبيه بحصار مدينة طروادة لشبهوا ايضاً اليونان في ابتزاز غنائم طرابلس. ولو قصد رؤساء الجند ان يمنعوهم لَمَا وجدوا اذناً سامعة او يداً قاهرة تقوى على كبح جماحهم. وفي هذه الاثناء اضرم الجند النار في بعض احياء البلد فتلفت مكتبة المدينة اماً حرقاً واماً نهباً

واوَّل من دوَّن هذا الخبر في تاريخهِ احد المعاصرين للوقائع التي يرويها وهو ابن القلانسيّ المتوفَّى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) في تاريخهِ المعنون بذيل تاريخ دمشق في الصفحة ١٦٥ من الطبعة البارزة من مطبعتنا الكاثوليكيَّة بهمَّة المستشرق المسيو اميدروس قال في تاريخ سنة ٥٠٢هـ:

شدَّ الفرنج القتال على طرابلس وهجموها من الابراج فملكوها بالسيف في يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة وغنموا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها واطفالها وحصل في ايديهم من اعتنها وذخائرها ودفائن دار علمها وما كان منها في خزائن ارباحها ما لا يُحَدّ عددهُ ولا يُحصر فيُذكر.

هذا ما رواهُ ابن القلانسيّ عن ٥ واليها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الامان قبل فتحها فلمَّا مُلكت أُطلقوا ووصلوا الى دمشق بعد ايَّام من فتحها ٥ وبهِ اظهر الفرنج حسن قيامهم بمواعيدهم

قد كثر القال والقيل في ضياع مكتبة طرابلس . وكلّ ما ذاع بصدد من تلفها مبنيّ على رواية ابن القلانسي الوارد ذكرها . فجاء الخلف من بعده فنقلوا كلامه واضافوا اليه ما عنّ لهم شأن الاخبار التي يتّسع نطاقها على قدر ابتعادها من مصدرها

وان سألنا القلانسي ما هي تلك المكتبة المفقودة بالنهب افادنا عنها بكلمات ثلث فدعاها « دفاتر دار علمها » وكانت دار العلم هذه مدرسة انشأها القاضي ابو طالب ابن عمّار وهو الذي كان استولى على طرابلس سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠م) وكانت المكتبة متصلة بهذه المدرسة التي يوهم اسمها « دار العلم » بأنها كانت كليّة جامعة تُدرَّس فيها ضروب العلوم كما في عهدنا . كلا ثم كلا . فان المراد بالعلم في اصطلاح مؤرخي العرب انما هو درس القرآن وما يلحق به من التفسير والحديث واللغة . امّا العلوم المدنيّة كالطبّ والهيئة والرياضيات الخ فكانت تُعرَف بعلوم الاوائل وكان لها مدارس خاصّة يحضرها الدارسون كما اثبت ذلك المستشرق الكبير المرحوم اغناطيوس غولدسيهر (١ ولا شاهد لدينا يثبت تعليم المسلمين علوم الاوائل في طرابلس

وترى ماذا كانت الكتب المودعة في هذه دار العلم ؟ ماذا كان موضوعها ؟ وكم كان عدد ما تلف بالنهب منها ؟ فهذه كلها امور سكت عنها ابن القلانسي والمؤرخون الذين عاشوا في زمانه وتكفّن عنها الذين اتوا بعده

فانّ ابن الاثير الذي كتب في القرن السابع للهجرة نقل في تاريخه الكامل ما رواه ابن القلانسي في تاريخ سنة ٥٠٣ بحرفه دون ذكر المنقول عنه وهو لا يخالفه الّا في لفظة واحدة بقوله « كتب دور العلم » على صيغة الجمع لا « دار العلم » . وليس لدينا نسخ مخطوطة من تاريخ ابن الاثير للوقوف على روايته الاصليّة فمن المحتمل انّ النسّاخ قرأوا بالغلط « دُور العلم » بدلًا من دار العلم

والى هذه الرواية المشبوهة استند المستشرق المرحوم هرتويك ديرنبورغ في ابحاثه عن أسامة بن منقذ حيث ذكر نهب « مكاتب طرابلس تلك المدينة العريقة في العلم وصرح العلوم » فمن اطّلع على كلامه لا يشكّ في انّ تلك المدرسة القرآنية كانت كاحدى كليّات اوربّة الحقيرة في القرون الوسطى تجاريها في علومها العليا .

١) اطلب مجلة الاكادمية برلين Goldziher: Stellung der alten Islam. Orthodoxie zu den antiken Wissenschaften (Acad. de Berlin 1917)

وكان سبقهُ الالماني بروتس (Prutz) في كتابهِ عن تاريخ آداب الصليبيين الذي موَّه فيهِ الحقائق التاريخيَّة فزعم هناك انَّ مكتبة طرابلس المذكورة كانت تحتوي الوفاً مؤلفة من الكتب. فخصَّص ما رواهُ ابن القلانسي اجمالاً وورد في كامل ابن الاثير بالمقالة. وكلاهما يذكر نهب الكتب مع سواها من الذخائر والامتعة ولا يذكرهُ بالحريق. ولو ثبت حرقُ الصليبيين لهذه المكتبة لوجدوا لهم عذرًا في حريق كثير غيرها في تلك الازمنة المضطربة المتواترة الحروب. فليُراجع ما كتبهُ ابن القلانسي (ص٩٦) عن حريق الجامع الاموي سنة ٤٦١ ﻫ (١٠٦٩) وما تكرَّر فيهِ بعد ذلك غير مرَّة من لهيب النيران فلا شكَّ انَّها التهمت المكاتب المهمَّة المودعة في هذا الجامع

وممَّا ثبت اليوم بالانتقاد انَّ المكاتب في القرون المتوسطة قبل اكتشاف الطباعة لم تبلغ مبلغ مكاتبنا الكبرى في عهدنا مهما قيل جزافاً عن كبرها. ثمَّ انَّ هذه المكتبة الطرابلسيَّة كان جمعها ابن عمَّار القاضي الذي كانت ولايتهُ على طرابلس منذ زمن قليل فلم يسمح لهُ الوقت وكثرة النفقات ان يوفر عدد مخطوطاتها الى حدّ بليغ كما يرويهِ النُّلاة. ومن هؤلاء النُّلاة ناصر الدين محمَّد بن عبد الرحيم المعروف بابن الفرات المتوفَّى سنة ٨٠٧ ﻫ (١٤٠٥م) فانهُ كتب تاريخهُ المعروف بتاريخ الدول والمارك نحو ثلثمائة سنة بعد الوقائع التي يرويها. فجعل عدد الكتب التي اتلفها الفرنج ثلثة آلاف الف اعني ثلثة ملايين ويصرّح هناك بما لم يقلهُ ابن القلانسي وابن الاثير قبلهُ فيقول انَّ الفرنج احرقوها. وقد استند ابن الفرات الى كاتب شيعي يدعى يحيى بن حميدة بن ابي طيّ الحلبيّ الذي فُقدت كلّ تآليفهِ وتوفي سنة ٦٣٠ ﻫ (١٢٣٢م) فاتَّخذهُ ابن الفرات دليلاً

وقد ضرب ابن الفرات صفحاً عن مؤرخٍ آخر سبقهُ بنحو مئة وسبعين سنة اعني بهِ شهاب الدين التويري الذي لم يعرف شيئاً من رواية ابن ابي طيّ ويذكر ان مكتبة طرابلس التي اتلفها الفرنج كانت تحتوي مئة الف مجلَّد. فبين هذا العدد اعني مئة الف والعدد المذكور في تاريخ ابن الفرات المستند الى ابن طيّ اعني ثلاثة ملايين من الكتب بونٌ عظيم كنسبة الواحد الى الثلثين. ونحن نرى طرًا ظاهرًا في رواية التويري فكيف نسلم بقول ابن الفرات الذي يُشعر باقاصيص الف ليلة وليلة وكأنَّ ابن الفرات وابن ابي طيّ ارادا ان يعارضا بين حريق مكتبة الاسكندريَّة في عهد عمر بن

الخطّاب وحريق الصليبيين لمكتبة طرابلس فأتيا بما يقرّب الصدق بقولهما على ما حسبا . قال ابن القرات :

« وكان لطرابلس دار علم لا نظير لها في العالم. تحتوي على ثلثة آلاف الف كتاب في العقائد وتفسير القرآن الشريف والحديث والادب . وكان عدد المصاحف فيها يبلغ خمسين الفاً والتفاسير عشرين الفاً . وكان قضاة بني عمّار يتشوّن بنجاح هذه دار العلوم ويصرفون الرواتب السنوية على مئة من الشيّاخ وكان بينهم ٣٠ شيخاً لا يبرحون الدار نهاراً ولا ليلاً . وكان لهم عُمّال في كل البلدان ليبتاعوا لهم افضل ما يجدون من الكتب . وكانت طرابلس في عهد بني عمّار اصبحت مدينة زاهرة حافلة بالعلوم يتقاطر اليها العلماء من كل البلدان . فلما وقعت المدينة سنة ٥٠٣ في ايدي الفرنج بقودهم ريمون صنجيل دخل احد كنيستهم دار العلم فنصّب من وفرة كتبها . وكان اوّل خزانة رآها خزانة المصاحف فاخذ الواحد منها فعرف انهُ القرآن وهكذا استرى بقيّة الكتب واذا هي كلها مصاحف فاطن الامر لرفقته فاضرموا فيها النار وحوّلوا المكتبة رماداً ولم يبق منها الّا عدد قليل من التآليف تشتّت شمالها في البلدان (١) »

فترى من هذه الرواية مع ما فيها من الأرقام المفرطة ان معظم محتويات مكتبة طرابلس كانت كتباً دينيّة موافقة لدار العلم اعني مقام التعليم الديني . ولا اثر هناك لما زعمهُ جرجي افندي يني في تاريخ سوريّة (ص ٣٨٣) « انهُ كان بين مجلّداتها كثير من كتب الفرس والعرب واليونان » فانّ علوم الاوائل لم تزل في عهد الصليبيين راقية مزهرة (٢)

فمن تأمّل كلّ هذه الروايات تحقّق ما فيها من المزاعم الباطلة والخرافات . فانّ كتبة العرب في احصاءاتهم يأتون باعداد لا يمكن تصديقها . فهذا ابن الاثير مثلاً يزعم انّ الصليبيين لمّا دخلوا معرّة النعمان قتلوا مئة الف من اهلها اعني خمسة اضعاف اكثر مما كانت تحتويه تلك البلدة

وان عدنا بالنظر الى خزائن الكتب وجدت في اقوال القدماء ما يبعد عن الحقيقة بُعد الثريا عن الثرى . فاطلب مثلاً ما كتبهُ المقريزي في الخطط (١ : ٤٠٨) عن مكتبة القصر الفاطمي . تجد بين الروايات التي دوّنها هناك تبايناً عظيماً فبينما يذكر الواحد « ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري » يقول الآخر وهو ابن ابي طي « ومن عجائبها انهُ كان فيها الف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري » وبينما يؤكد ابن ابي واصل ان خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين الف مجلّد يجعلها ابن الطوير زيادة على مائتي الف كتاب من المجلّدات وينيفاً من المجرّدات » ويقول ابن

١) تعريب ما رواه كاترمار Quatremère : Mémoires sur l'Egypte II,506

٢) اطلب تاريخنا La Syrie, I, 245-246

الى طيّ على عادته بالمغالاة انها « كانت تشتمل على الف الف وستمائة الف كتاب » فقس على ذلك ارقام كثيرين من مؤرخي العرب التي لا يمكن قبولها

فأخطأ اذن جرجي افندي ينّي بنقل هذه الروايات الضعيفة على علّاتها دون ان يعمل فيها نظر النقد . وكذلك لم يُصب بقوله (ص٣٨٣) فيما نسبهُ الى الصليبيين من تقهقر طرابلس وسقوط تجارتها وزراعتها وصناعتها . والمأثور كتب ما كتب في عهد الاتراك خوفاً من مراقبة المطبوعات او خدعتهُ اوهامهُ الباطلة . وما لا ريب فيهِ انّ سواحل الشام ومدنها البحريّة بلغت في عهد الفرنج مراقي العزّ والنجاح واخذت بمنتهم تجارة عكّا وصور تزاحم تجارة القسطنطينيّة يشهد على ذلك ابن جبير في رحلته (١

اما خمود هذه الحركة التجاريّة وسقوط المدن الساحليّة عموماً كعكّا وصور وصيدا الخ فانما حدث بفعل سلاطين مصر المعروفين بالمماليك فانهم خوفاً من حملات الفرنج على سواحل الشام التي كانت في ملكهم خرّبوا حصونها ودمّروا اسوارها واستأصلوا آثار طرابلس ونقلوا اهلها الى الداخليّة (٢ . فكانت تلك الضربات لازبةً اثّرت ايّ تأثير في حياتها الاقتصاديّة بل في حياتها الادبيّة فترى الشام وبقيّة البلاد المجاورة لها خاملة عقيمة لا تجد من التآليف الّا ما لا يُنبأ بهِ من منقولات عن الكتب السابقة والمجاميع الثانويّة التي تُروى فيها الاخبار عن السلف دون انتقاد يخلط الكتبة النثّ بالسين . فاين اين التآليف المشعة كالاغاني وتواريخ الطبري والبلاذري والمسعودي . فترى بدلًا منها كتباً تدور في دائرة ضيقة تختلف صورةً وتتّفق معنى بل ربّما تجد من السرقات الادبيّة ما يخجل لهُ وجه الادب . وكم هناك من التآليف السخيفة او المصنّفات الخياليّة كاقاصيص الف ليلة وليلة واسفار سندباد البحري وفتوحات شتى كفتوح الشام المنسوب الى الواقدي وكلّها خالية من النقد الصحيح والتحقيق الواجب لاسيما فيما يروونهُ من الاحصاءات كما يجدونها في مخيلتهم او يسندونها الى مصادر ضعيفة ليس تحتها كبير أمر .

وفي ختام هذه الاسطر نتمنّى ان يوجه كتبتنا المعاصرون نظرهم الى انتقاد ما يروونهُ عن السلف فيعرضونهُ على محكّ البصيرة . ولا يقبلون منهُ الّا ما وافق الحقيقة وينبذون كل ما سواه

(١) اطلب تاريخنا المذكور ١ : ٣٥٣ الخ و٣٦٥ الخ (٢) فيهِ ايضاً ٣ : ٢ الخ